من المائدة إلى الخطاب: قراءة في كتاب «الطعام والكلام حفريات بلاغية ثقافية في التراث العربي» لسعيد العوادي

د. يحيى الشراع
جامعة القاضي عياض مراكش، المغرب
البريد الإلكتروني: yahiaaach@gmail.com
معرف (أوركيد): ١٩٩٤-٠٠٠١-٩٤٦٩-١٩٩٤

تعريف كتاب الاستلام: ٩-٩-٢٠٢٥ القبول: ٥-١٠-٢٠٢٥ النشر: ٣١-١٠-٢٠٢٥

الملخص:

يسعى هذا المقال إلى تسليط الضوء على ثنائية «الطعام» و«الكلام» وبسط حضورهما اللافت في التراث العربي الأصيل، من خلال كتاب الدكتور سعيد العوادي: «الطعام والكلام: حفريات بلاغية ثقافية في التراث العربي»، وعليه سيهدف البحث إلى استكشاف الطريقة المبتكرة التي اعتمدها الدكتور العوادي في الربط بين الطعام والكلام، بوصفهما ظاهرتين ثقافيتين، لا تقتصران على أبعادهما المادية أو اللغوية فحسب، بل تتجاوزان ذلك إلى القدرة على تشكيل نسيج ثقافي وبلاغي غني ومنسجم، كما سيعمل البحث على الكشف عن المنهجية البلاغية والثقافية التي اتبعها الكتاب، ومكّنته من تقديم قراءة مختلفة للتراث العربي، إضافة إلى محاولة تقييم دور هذا الكتاب في إعادة اكتشاف التراث العربي من منظور مُبدع، أعاد الاعتبار للبلاغة وربطها بسياقاتها الثقافية المختلفة.

الكلمات المفتاحية:

الطعام، الكلام، البلاغة، الثقافة، التراث العربي.

للاستشهاد/ :Atif için / For Citation الشراع، يحيى. (٢٠٢٥).من المائدة إلى الخطاب: قراءة في كتاب «الطعام والكلام حفريات بلاغية ثقافية في التراث العربي» لسعيد العوادي. ضاد مجلة لسانيات العربية وآدابها. مج٦، ع١٢، ٢٧٥- ٣٠١ https://www.daadjournal.com/ /

From the Table to the Discourse: A Reading of the Book "al-Ṭaʿām wa-al-Kalām: Ḥafriyyāt Balāġiyyah Ṯaqāfiyyah fī al-Turāṯ al-ʿArabī" by Sa'id La'uadi

Yahia CHRAA

Assistant Professor, Cadi Ayyad University, Marrakech, Morocco
E-Mail: yahiaaach@gmail.com
Orcid ID: 0009-0001-9469-1994

Research Article Received: 09.09.2025 Accepted: 05.10.2025 Published: 31.10.2025

Abstract:

This article seeks to shed light on the duality of "food" and "speech" and clarify their remarkable presence in the authentic Arab heritage, through Dr. Said Laouadi's book: "Food and Speech: Cultural and Linguistic Excavations in the Arab Heritage." The research will explore the innovative approach adopted by Dr. Laouadi in linking food and speech as cultural phenomena that are not limited to their material or linguistic aspects, but transcend them to form a rich, harmonious cultural and rhetorical combination. The research will also reveal the rhetorical and cultural methodology adopted by the book, which enabled it to present a different interpretation of the Arab heritage. In addition, it will attempt to assess the role of this book in rediscovering the Arab heritage from a creative perspective, which has restored the importance of rhetoric and linked it to its various cultural contexts.

Keyword:

Food, Speech, Rhetoric, Culture, Arab Heritage.

تقديم:

يأتي كتاب «الطعام والكلام: حفريات بلاغية ثقافية في التراث العربي» للدكتور سعيد العوادي، بوصفه إضافة نوعية للمكتبة العربية، قدّم فيه الدكتور العوادي قراءة فاحصة ودقيقة للعلاقة الرابطة بين مفهومين متباعدَيْن شكْلا متعالقَيْن مضمونا: «الطعام» و«الكلام»، واعتمد الكتاب بشكل أساسي على نصوص التراث العربي الغنية والفريدة، مستخلصا منها رؤى وتحليلات عميقة حول العلاقة المتشابكة بين هذين المفهومين.

تهدف القراءة التي سنقدمها لهذا الكتاب إلى استكشاف الطريقة المبتكرة التي اعتمدها الدكتور العوادي في الربط بين الطعام والكلام، بوصفهما ظاهرتين ثقافيتين، لا تقتصران على أبعادهما المادية أو اللغوية فحسب، بل تتجاوزان ذلك إلى القدرة على تشكيل نسيج ثقافي وبلاغي غني ومنسجم، كما ستحاول هذه القراءة الكشف عن المنهجية البلاغية والثقافية التي اتبعها الكتاب، ومكّنته من تقديم قراءة مختلفة للتراث العربي، وختاما ستحاول هذه القراءة تقييم دور هذا الكتاب في إعادة اكتشاف التراث العربي من منظور مُبدع، أعاد الاعتبار للبلاغة وربطها بسياقاتها الثقافية المختلفة.

١- مأدبة معرفية وتصميم مُبدع:

تميز كتاب «الطعام والكلام» ببنية هيكلية فريدة ومبتكرة، نقلت صورة واضحة عن الفكرة المحورية للكتاب، وأكدت على المقاربة البلاغية الثقافية التي تبناها الدكتور العوادي؛ فقد اختار أن يصمم كتابه على هيئة «مأدبة معرفية»، وهو تصميم يتجاوز التقسيم التقليدي للفصول والمباحث، بشكل جعله جزءا من رسالة الكتاب، ويُمْكننا تعرّف ذلك بسهولة من خلال إلقاء نظرة على محتويات الكتاب، حيث نتلقى المقدمة بوصفها «مُفتِّحة» لشهية القارئ بأسلوب شعريّ بليغ؛ يقول الدكتور سعيد العوادي في مطلعها:

«الحمد لله الذي أفاض علينا بألوان الشراب وصنوف المأكولات، ومَيَّزنا باستعمال الكلام وابتداع الاستعارات، ومنحنا عقلا وذوقا يمزج المفردات بالطيبات، فنُجمِّل

أطباقنا ببديع المشتهيات، ونُزَيِّن كلامنا بلذيذ العبارات»[1].

بهذه الكلمات الدقيقة، دخل الكاتب منذ البداية في صلب الموضوع، وليس ثمة من أمر أجلّ في البداية من حسم النقاش حول جدّيّة الموضوع وفرادته، وإحكام الحجة حول مشروعية الاختيار وكفاءته، ولذلك حرص الدكتور العوادي على أن يؤسس للعلاقة الرابطة بين الطعام والكلام، وهي علاقة تتجاوز في نظره النّبر الصوتي إلى التعالق الدلالي، إذ بهذه العلاقة المعقدة يحيا الكائن الإنساني، فالطعام حصنه الماديّ ضد الجوع، والكلام حصنه المعنويّ ضدّ الوحدة والخواء.

وإذا كنّا قد أَلِفْنا في عادات أكلنا تناول الطبق الرئيسي بعد المُفتِّحة، فإن الدكتور العوادي يضع بين أيدينا أطباقا معرفية أربعة، رتّبها على الشكل الآتي:

الطبق الأول: حقل الطعام، بين ضيافة الدنيا وضيافة الآخرة.

الطبق الثاني: جسور الطعام، من الطعام البلاغي إلى الطعام البليغ.

الطبق الثالث: شعرية الطعام، القِرى والمأكول والمشروب.

الطبق الرابع: نثرية الطعام، الموهوب والمنهوب والمرهوب.

مثلت هذه الأطباق الأقسام الرئيسة للكتاب، واختص كل طبق بتناول محور مركزي من محاور البحث، مكنّت من التعمق في الجوانب المختلفة لعلاقة الطعام بالكلام في التراث العربي؛ وهو ما يجعلنا نقول إنّ هذا التصميم المبتكر لا يضفي جمالية على الكتاب فحسب، بل يعزز أيضا من فهم القارئ للمقاربة التي اعتمدها الباحث، حيث يصبح الكتاب نفسه تجسيدا للعلاقة بين الطعام بوصفه شكلا وبنية، وبين الكلام بوصفه محتوى ومضمونا.

لقد أوصلنا التأمل في مضامين الكتاب عبر أطباقه المتنوعة إلى استخلاص أبرز ما ميز العلاقة المعقدة بين الطعام والكلام، انطلاقا من المدخل البلاغي الثقافي؛ ولذلك سيلحظ المطلع على الكتاب أن فيه أشكال تناول بلاغية ثقافية مختلفة، يمكن أن نعرضها كالآتي:

(١) الطعام والكلام حفريات بلاغية ثقافية في التراث العربي: ١٤.

١-١-بلاغة الطعام:

نجد في تضاعيف الكتاب حضورا لافتا لما يمكن أن نَسِمَه بِـ»بلاغة الطعام»، من خلال المقارنة مثلا بين طعام أهل الدنيا وطعام أهل الآخرة، حيث تغدو «بلاغة المأكول» حاضرة بفِعْلَيْها «أكل» و»شرب»، ومتشعبة في النسيج الاجتماعي، وفارضة قوتها بوصفها مؤثرة في اتخاذ القرارات وبناء التحالفات وتحسين العلاقات أو قطعها، «وفي هذا المجرى يجري تباين الطعام حسب الوضع الاجتماعي، فيصبح دالّا على الفوارق والطبقات»[١].

كما لا نعدم انتباها «لبلاغة المشروب»، إذ يرصد الدكتور العوادي حضورا ثقافيا فريدا في علاقة العربيّ بالكأس والخمرة، ففي نهاية المطاف «فإنّ في الخمر معنى ليس في العنب» كما قال المُتنبّي. يرتبط الخمر في النسق العربي بالذكورة والفحولة، ولذلك حرص العرب قديما على عدم معاقرة النساء له، تحرّزا عن الوقوع في المحظورات المجتمعية. وفي هذا نلمس إلماعة ذكية، تنبئ عن وعي عميق بخطورة الخطاب ودور المجتمع في تأثيثه وتشكيله، يقول سعيد العوادي واصفا ذلك: «وقد يكون خطاب الخمر أخطر من الخمر نفسه؛ لما فيه من صنعة فنية لغوية تلعب بالخيال مجاوزة لعب الشراب بالعقل. وهكذا تكون صورة الشيء أكثر تأثيرا من حقيقة الشيء ذاته»[٢].

لقد كان لبلاغة الطبخ نصيبها من الحضور، وتحرّك فيها الكاتب ما بين الوصف والتذوق. ولم يكن ليهمل في هذا السياق ذِكر شعر ابن الرومي (٢٨٣هـ)، ومنه تلك الأبيات المشتهرة في وصف طريقة خبز الخباز المبهرة والمتقنة:

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها في كفِّه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر[٣]

إنها «لقطة سينمائية عالية السرعة التقطتها عين ابن الرومي من مشاهدات الحياة

(١) الطعام والكلام: ٤٢.
(٢) الطعام والكلام: ٢٠٠.
(٣) ديوان ابن الرومي: ٢\١٤٦.

اليومية الزاخرة في المرحلة العباسية»[1]، ولم يكن الخبز والرغيف الوحيدين الحاضرَيْن في مشهد الطبخ، بل حضر الموز والمِلح وحلوى اللوزينج، هذه الأخيرة التي لم تكن حلوى فحسب، بل عنصرا ثقافيا يحدد من خلاله ابن الرومي مدى قرابة الشخص منه ومقدار المودّة التي يمكن أن يمدّه بها، لأنها كانت أحبّ طعام إلى قلبه قبل بطنه.

ليس الطعام إذن محض مأكول يُرمى في المعدة، بل هو ظاهرة ثقافية، تعبر عن حالة اجتماعية معينة، وهي التي انتبه إليها سعيد العوادي، حين تحدث عن طبخ الطعام من زوايا مختلفة: فمن زاوية القِلَّة، مرورا بزاوية أدوات الطبخ، وصولا إلى زاوية الوَفرة، وجعل كل ذلك مطيّة لتسليط الضوء على جانب من الثقافة التراثية العربية المرتبطة بالعادات، وبخاصة ما تعلّق بعيد الفطر والولائم والشّواء وقُدور الطعام ومسابقات الطبخ والمُجبَّنة الأندلسية والكسكسي المغربي.

١-٢- بلاغة الكلام:

يمكن لقارئ الكتاب أن يستخلص ثلاثة مكونات لهذا الطبق، تتضافر جميعها لتشكل بلاغة الكلام في ارتباطها بالطعام مأكوله ومشروبه في التراث العربي، حيث يعقد الكاتب فصلا خاصا سمّاه: «جسور الطعام، من الطعام البلاغي إلى الطعام البليغ».

في هذا الفصل تجد البلاغة لنفسها موطئا فسيحا، حيث تتحرك بلاغة النطق في ذلك الانتقال السّلس من الصوت إلى المعنى، فلا تتحقق بلاغة البليغ إلا بإقلال الكلام، مثلما لا تكتمل رجولة المرء إلا بتجنبه الشّره وبإقلاله الطعام، ولهذا عدَّ العرب البلاغة قديما «إجاعة للفظ وإشباعا للمعنى»، إنّه تصوّر أنيق لما ينبغي أن تكون عليه البلاغة ي بداياتها، وهذا التّعالق الوثيق بين الطعام والكلام جعل الدكتور العوادي يشير إلى أنه تعالق «لا يجب أن يُحمل على الهزل والمُلَح، لأنه اختلاط جادّ وعميق يُبيّن أهمية القول البليغ»[2].

ولبلاغة الصمت حضورها الوازن أيضا، «فإذا كان اقتران الذوات باللون والكلام

(١) الطعام والكلام: ١٨٥.
(٢) الطعام والكلام: ٨٧.

دلالة على سلطة الحضور وغواية المركز، فإن في اقتران «الآخرين» بالظل والصمت إعلان لارتباطهم الدائم بعوالم الهامشي والغائب والمجرد»[١]؛ فلا معنى لإطلاق الكلام على عواهنه، كما لا قيمة لطعام مكوناته غير مضبوطة العدد والكمية والقدر، فطبخ الطعام يحتاج زمنا محددا، كما أن الكلام المتزن المقبول يحتاج من صاحبه تقليبا وانتقاء وتمهلا، ولذا اعتنى العرب بالصمت اعتناءهم بالكلام، وكانت علاقة الأدب بالمأدبة مرتبطة بالصمت ارتباطَها الوثيق بالكلام، «لأن الدعوة إلى الطعام الطّيب تكون مرفوقة بدعوة مماثلة إلى كلام طيب أيضا، ولن يقوم بهذه المهمة إلا الأدب عامة»[٢]، وما بين كلام وكلام يكون الصمت سيد الموقف، بل وأحيانا يستحيل الصمت كلاما بليغا وبتعبير سعيد العوادي «ممارسة خطابية بليغة»، لها أثرها وما يستتبعها من مواقف وردود أفعال.

ولم ينس الكتاب استحضار بلاغة الكتابة، وهي مستعرضة في جميع فصول الكتاب ومفاصله، فهو بأكمله ممارسة مباشرة في بلاغة الكتابة عن الطعام، وحسبنا أن نلفت الانتباه إلى بعض ما أثاره الكتاب بخصوص هذا الأمر، وبخاصة ما ارتبط بأنواع الأطعمة في النثر العربي، من خلال التقسيم الفريد الذي اقترحه الكاتب ما بين الطعام الموهوب، وهو طعام الكريم الحريص على تثبيت القيم والأخلاقيات من جهة، وبين الطعام المنهوب من طرف الطّفيلي، والطعام المرهوب لدى البخيل من جهة أخرى، وكلا الطعامَيْن الأخيرين يشتغلان في سيرورة «هدم تلك القيم والأخلاقيات، من جهتَيْ النهم والهجوم على الولائم، والتقتير والحرص الشديد»[٣].

ينقلنا الكتاب في رحلة ممتعة إلى فضاء الكتابة وعلاقتها بالطعام والطبخ، من ذلك كتاب بدر الدّين الغزّي (٩٨٤هـ) المسمى «آداب المؤاكلة»، الذي عرض فيه صاحبه عيوب المؤاكلة التي يجدر بالآكِل تجنبها حتى يصح تسميته خبيرا بآداب المؤاكلة، وأوصلها إلى واحد وثمانين عيبا؛ وأدرج العوادي هذه الطريقة في الكتابة ضمن ما سمّاه «نسق الكتابة بالنّفي»[٤]، فمعرفة الإنسان العيب وبذل الجهد في تجنبه، يجعله يلج تلقائيا مسار المؤاكلة بالوجه المقبول ثقافيا.

(١) الفتنة والآخر: أنساق الغيرية في السرد العربي: ١٢.
(٢) الطعام والكلام: ١٠٠.
(٣) الطعام والكلام: ٢١١.
(٤) الطعام والكلام: ٢٢٢.

١-٣- بلاغة الجسد:

تتمثل العلاقة بين الطعام والكلام في جانب منها في تضاد المسار، فلئن كان مسار الطعام ينطلق من خارج وعاء الجسد ليمر عبر الفم ويصل إلى داخله، فإن الكلام يفعل العكس تماما، إنه ينطلق من داخل وعاء الجسد ليلفظ خارجا عبر الفم، ولعل القناة المشتركة بينهما «الفم» هي ما تجعل الشراكة مستمرة بين خارج يُلقَم وداخل يُلفَظ، إنه تلك المنطقة الرمادية التي تربط عالم الإنسان الداخلي بفضائه الخارجي، والجسد الذي يستوعب كل هذه الأفعال والتفاعلات يدخل مع نفسه ومع محيطه في علاقة صراع خفية، تتجاذبها السلطة، وتعمل على تحديد هويته، ومنحه موقعا انطلاقا من رؤيته لجسده في تناسب مع بقية الأجساد الأخرى.

من هنا إذاً، يظهر اهتمام كتاب «الطعام والكلام» بالجسد وبدلالاته الثقافية في ارتباط وثيق بالطعام والكلام، ولا نجانب الصواب إذا قلنا إنّ الإشارة إلى الجسد في نظرنا، تحركت عبر مداخل ثقافية مختلفة، أبرزها:

١-٤- بلاغة الجوع:

يرتبط الجوع بالصّراع والحاجة والترهيب، إنه ضرورة بيولوجية لا مفر منها؛ وتلقى التراث العربيّ الجوع بطرق مختلفة، واستقبلته الثقافة بما يناسب مقامه؛ وساق لذلك الكاتب مجموعة من الأخبار والحوارات التي تُعلي من قدر الجوع تارة وتذمّه تارة أخرى في قالب هزلي ساخر، ولعلّ هذا التّقلّب ما جعل أحد الحكماء يُجيب عن سؤال ما أطْيب الطعام؟ بقوله: «الجوع: ما ألقيتَ إليه من شيء قَبِلَه»[1]؛ إنها رؤية ثقافية، تربط الشيء بضده، فلا قيمة لشيء إلا عند الحاجة الماسة إليه؛ لقد اكتسب النّوم قيمته من حضور نقيضه، فلا يُتلذّذ به إلا بعد الاستيقاظ مدة طويلة وإنهاك الجسد، والأمر نفسه ينطبق على الطعام، فحلاوته تبدأ من أول لقمة تُرمى في بطن الجوع، إنه إذا شئنا تسميته: البطن المحتاج.

وبقدر حميمية العلاقة بين الطعام والجوع، تنقلب هذه العلاقة سُمِّيّة بين الطعام

(١) العقد الفريد: ٨\١٧.

والطعام، وتستحضر المرض ولوازمه، حتى قالوا قديما إن من المهلكات الثلاثة «إدخال الطعام على الطعام»، وهو ما أشار إليه الدكتور العوادي بقوله إنّ «تصنيف الطعام إلى طيّب وغير طيب هو من عمل الشبعان»[١].

١-٥-بلاغة الشَّبع:

حين يحضر الجوع يحضر الطعام، وكثيرا ما يحضر معهما الشَّبَع، ويستتبع ذلك حضور الكلام والإفاضة فيه، وهو ما جعل الشّبع يتوزع في قِدْر الكتاب وأطباقه المتنوعة، إنه غاية الكثيرين من الأكل ومن الكلام، تَجاوُزا للحد الأدنى في كون الأول حصن الإنسان المادّي ضد الجوع والمرض، والثاني حصنه المعنوي ضد الوحدة والخواء[٢].

ينبئنا فهرس الكتاب عن إصرار الشبع على الحضور ورغبته القوية في فسح المجال له للظهور؛ فهو رفيق الوفرة والقوة والكرم والنعيم، وليس أدل على ذلك من أن العوادي عَنْوَن الطبق الأول بِـ: حقل الطعام: بين ضيافة الدنيا وضيافة الآخرة؛ وهل الضيافة إلا لحظة مُنبئة عن الشبع القادم، وعن طيب العلاقة التي ستربط المُضيف بالمُضاف أو عدمها.

يُخبرنا الشبع والإشباع عن طبيعة الثقافة السائدة في المجتمع، وعن قوتهما في تغيير أمور كثيرة؛ من ذلك ما أورده الكاتب في سياق حديثه عن أنّ لهما «قوة جبّارة كفيلة بإحداث تحولات جذرية في حياة الفرد والجماعة معا، وقد بلغ هذا التحول مداه حين كان سببا مباشرا في تغيير اسم جدّ الرسول عليه السلام»: هاشم عمرو، لأنه كان أول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعَمه[٣].

يحتفي الكاتب في المبحث الخاص بالطعام البليغ بالفاكهة والفُكاهة، وبالتّحميض والحَمض، وبالمِلح والمُلَح؛ وهي في مجملها تستظل بظل الوفرة والشّبع غالبا، فالفاكهة مثلا تنقل السامع إلى جوّ الشّبع والراحة، ما يسمح بظهور الفكاهة والتّبسّط في القول، وهو ما يفسح المجال للترف النفسي والفكري.

(١) الطعام والكلام: ١١٢.
(٢) الطعام والكلام: ١٤.
(٣) الطعام والكلام: ٣٣.

١-٦- بلاغة الثقافة

ترتكز فرضية الكتاب على أنّ الطعام ظاهرة اجتماعية ثقافية وليس محض ظاهرة بيولوجية تنتهي صلاحيتها بانتهاء فعلَيْ الأكل والشرب، وعلى هذا الأساس تشكلت جلّ مباحث الكتاب، وانضبطت له، وهذا الربط بين الظاهرة وتجلياتها الثقافية هو من مثالب هذا الكتاب ومحاسنه الكثيرة، وسيكون من نافلة القول إن الكتاب في مجمله مزاوجة بين الطعام واللغة والثقافة، هذه الأخيرة التي تخترق كل جوانب الحياة الإنسانية المختلفة، وحسبنا هنا أن نعرض لمحة لما أشار إليه الكتاب في هذا السياق، فنذكر:

- بلاغة الكرم: من العطاء إلى السخاء:

يتحدد الكرم بوصفه فعلا اجتماعيا ينتج عنه الشّبع الذي تقدّم معنا سابقا، وهو ممارسة خطابية بلاغية وبليغة في الآن نفسه، ولأمر ما كان حاتم الطائي أيقونة التراث العربي في الكرم والبذل والعطاء، ولم يكن كرمه هذا مرتبطا بالطعام فحسب، بل امتد ليشمل أخلاقه ومثالبه وحديثه؛ ولعل هذا الجمع بين الكَرمَيْن هو ما جعل الدكتور العوادي يُفرد في محور الطعام البليغ عنوانا فريدا سمّاه «التحاقل الكلامي\الطعامي»، فكّك فيه مجموعة من الثنائيات المرتبطة ارتباطا وثيقا بالكرم الماديّ والمعنوي، فبدأ بالأدب والمأدبة، وثنّى بالفاكهة والفكاهة، وثلّث بالتحميض والحَمض، وختم بالمِلْح والمُلَح.

ونظر الكاتب في الطبق الأول من كتابه إلى الكرم من زاوية مختلفة، جعلت الموت فاصلا بين ضيافتين: ضيافة الدنيا وضيافة الآخرة، وولج إلى تيمة الكرم من زاوية الطعام البلاغي حين تحدث عن الشواهد البلاغية، وربط ما تعلق منها بالكرم بمبحث «الكناية الثقافي»، الذي «انبنى على شواهد الكرم بنسبة عالية جدا، تدلّل على مركزية هذه القيمة في الثقافة العربية، فالشواهد هنا ليست مادة تعليمية بحتة، بقدر ما هي مادة ثقافية تبرز أصالة الأمة وفرادتها»[1]، ومن هذه الشواهد المشتهرة «شاهد

(١) الطعام والكلام: ٩٧.

الرّماد» في قولهم «كثير رماد القدر»، و»شاهد الكلب» في قولهم «فلان جبان الكلب»، و»شاهد الفصيل» في قولهم «فلان مهزول الفصيل»، وغيرها كثير(١).

لا يمكن أن يُغفل القارئ القدرة الفذّة للكاتب على نحت العناوين ووصف الظواهر التي تناولها في كتابه، وفي علاقة بالكرم والكريم وسم طعام الكريم بِـ «الطعام الموهوب»، وهو عنده «طعام الكرماء الذي يهبونه للآخرين، ويحرصون على أن يكون، مثل أي هبة، فخما عظيما يعكس فخامتهم وعِظم مقامهم»(٢)، وهذه الفعل الاجتماعي المميز للإنسان العربيّ، هو ما ضمن لخطاب الكرم الانتشار والبقاء، والتخليد في النصوص النثرية كما هي في النصوص الشعرية، وبحكم دعم الثقافة له اتسع مدى الطعام الموهوب، فَرَحَلَ «من النثر الفنيّ إلى النثر القيمي والعلمي، مُتمظهرا في كتب الإرشاد القيمي التي تعنى بـ»آداب الأكل» وكتب الإرشاد الطبخي التي تهتم بـ»وصفات الطبيخ»»(٣).

- بلاغة البخل: من الشّح إلى الحرمان:

ما دام الحديث عن الكرم حاضرا، فإن الحديث عن البخل حاضر بالقوة وبالفعل، إنّ استحضارنا للكرم هو المحاولة الاجتماعية والثقافية لمواجهة البخل، وإذا كان الكتاب يتحدث عن الكرم بوصفه يمتلك بلاغته الخاصة وفلسفته القائمة على البذل والعطاء وطيب الخاطر، فإن للبخل خطابه وبلاغته الخاصّتين، وفلسفته القائمة على المنع والتقتير والتوتر الداخلي المستمر، وقد خصّ الكاتب هذا الفعل الاجتماعي بمحور خاص سمّاه «الطعام المرهوب»، وهو الطعام الموضوع «على مائدة البخيل، بوصفه «ثروة محصّنة» لا يستطيع أحد الاقتراب منها»(٤).

لم يكن هذا الفعل القائم على إبعاد الناس عن الطعام، والاستئثار به دونا عن الآخرين، ليُقبل في الثقافة العربية، فامتعضوا منه وخَوَّفوا وتأفّفوا، وجاوزوا في ذلك الحدّ إلى أن تلذّذوا بذمّ صاحبه، مثلما فعل الجاحظ، وعدّ ذلك من اللذات الثلاث

(١) الطعام والكلام: ٩٧-٩٨.
(٢) الطعام والكلام: ٢١١.
(٣) الطعام والكلام: ٢١١.
(٤) الطعام والكلام: ٢٥٧.

الباقية[1].

تناول الكاتب خطاب البخل ضمن ثنائيات متعددة، تندرج ضمن بنية مغالطية معقدة، فالبخيل يتحجج بالادخار والاستعداد لليوم الأَسْود من جهة، وبالحفاظ على المال وتجنب إضاعته من جهة أخرى، وتكمن المغالطة هنا في أن هذا البناء الحجاجي «يتقابل مع الإسراف لا الكرم»، وعلى هذا الأساس فكّك العوادي طعام البخيل، فهو «طعام منكمش» يسدّ الشهية ويؤذي البصر ويصوّر مقدار بخل صاحبه، وإن حدث وبقي شيء من هذا الطعام الرديء كمّا وجودة وحبّا، فإن البخيل يعتمد ما وصفه الكاتب بِـ «حِيل صيانة الطعام»، فيوظف «حيلة التكتيف» مستعينا بقدراته البلاغية واللغوية من أجل إبعاد الضيف عن الطعام؛ أو «حيلة الإحراج» وإيقاع الضيف في الحرج الذي لا يجد معه بدّا من الإحجام عن تذوق طعام البخيل؛ أو «حيلة الإلهاء» التي يعتمد فيها البخيل على إغراق ضيفه في الحديث والمسامرة، وسؤاله عن خبر أو حديث يطول، كأنه يكرمه بحديثه إليه، وهو يضمر من خلف ذلك إلهاء له عن الطعام.

ولمّا كان خطاب البخل هذا مذموما عند العرب، وتأصّل ذلك في التراث العربيّ، كان التأثير الثقافي لذلك ظاهرا في كتاب «الطعام والكلام» نفسه، فقد اتخذ خطاب البخل والطعام المرهوب موقعا متأخرا في الكتاب، وجاء في الطبق الرابع والأخير، وشغل المحور الأخير منه، ولعل الخطاب المذموم يبقى آخرا لأمريْن: أولهما حتى لا يعكر صفو حديث الثقافي والاجتماعي، وثانيهما حتى يعلق بالفكر إذ كان آخر ما يُقرأ، فيكون أوقع في النفس، وتذكيرا لها بما كان لسابقيها من رأي فيمن جعل البخل فلسفته في الحياة.

٢- قوة المقاربة وفرادتها:

اعتمد الكاتب في مقاربته للعلاقة المعقدة والمتشابكة بين الطعام والكلام على مقاربة فريدة سمّاها «مقاربة بلاغية ثقافية»، حلّل عن طريقها استثمار التراث العربي لمعجم الطعام، بمختلف تجلياته، في إنتاج الخطاب ومنحه المعنى، ضمن دوائر ثقافية تربط الخطاب بسياقات إنتاجه وتلقّيه، ومكّن هذا التّوجّه الكاتب من النفاذ إلى

(١) البخلاء: ٨٠.

عمق التراث العربي واستكشاف كنه العلاقة التي تربط الطعام بالكلام.

تعتمد هذه المقاربة على الانطلاق من مدخل البلاغة، والانفتاح على السياقات الثقافية المختلفة، وتتحدد البلاغة التي وظفها الدكتور العوادي في كونها «بلاغة منفتحة» من جانبين: الأول مرتبط بدائرة اشتغالها، والثاني متعلق بالأدوات الإجرائية المرتبطة بها، أما المدخل الثقافي، فكان سبيلا أولا، لتقديم قراءة ثقافية، تكشف عن الأنساق والتصورات التي حكمت إنتاج خطاب الطعام، والمضمرات الثاوية خلفه، في تعالق بينه وبين الحياة الاجتماعية والثقافية العربية، وثانيا، لاستحضار رؤية الإنسان العربيّ المختلفة للطعام والكلام، ودَفْعِه نحو طرح أسئلة مرتبطة بالهوية والسلطة والعلاقات الإنسانية المعقدة؛ فخطاب الطعام مثل بقيّة الخطابات «يُنتج المعرفة، والمعرفة هي دائما سلاح للسلطة»[١].

تنفتح الرؤية البلاغية الثقافية إذًا، على الحياة وعلى الواقع، وهي في نظر الدكتور العوادي رؤية «ترى أهمية انسلاك المقاربة البلاغية في صميم الاهتمامات اليومية العربية، وهو ما يضفي عليها قيمة إجرائية عملية، كما يفتح البحث الجامعي ـفي المحصّلةـ على قضايا المجتمع وخطاباته المتجددة.. ولعل هذا ما نحتاج إليه اليوم، وبشكل أكثر إلحاحا»[٢].

لا تنفصل هذه المقاربة عن البلاغة والثقافة العربيَّتيْن، إنّها «بلاغة أصيلة»، يرجع أصلها إلى الجاحظ وإلى عبد القاهر الجرجاني، وهي في نظر الدكتور العوادي «البلاغة التراثية الجديرة بالاستلهام والتطوير؛ فالأول سبق زمانه حين عَرَفَ أنّ البلاغة لا يقتصر موضوعها على القرآن الكريم والشعر الجميل، بل هي تسري في خطابات الحياة اليومية عند البخلاء واللصوص والباعة والشيوخ والنساء والأطفال... والثاني دقّق سؤالها، وحرّرها من الأحكام الانطباعية العامة ومن «عكّاز العميان» كما قال ابن الأثير، وخاض بها في معترك جديد يروم «المزيّة» بتعليل يمزج بين الذّوق والعلم»[٣].

لقد قدم الدكتور العوادي رؤية جديدة للبلاغة بوصفها أداة ثقافية حية، تتجاوز

(١) النظرية الثقافية والثقافة الشعبية: ٢١٠.

(٢) حوار الدكتور سعيد العوادي مع جريدة الجزيرة الثقافية، تاريخ الاطلاع: ١٠ غشت ٢٠٢٥، متاح على الرابط: https://www.al-jazirah.com/٢٠٢٥/٠١٣١/٢/cm.htm

(٣) الطعام والكلام: ١٦.

حدود القواعد الصارمة والتعريفات الجامدة؛ ولهذا غَدَا الكتاب صورة عن كيف يمكن للبلاغة أن تكون وسيلة أثيرة لفهم الثقافة وتحليلها، وذلك من خلال مقاربة تتسق مع مبادئ النقد الثقافي الهادف في جزء كبير منه إلى الكشف عن الأنساق الثقافية الكامنة في النصوص، إنها مقاربة منفتحة، وهي في صميمها تُناسب توجّه إدوارد سعيد، فهي «رؤية للحظة ما، وعلينا أن نقحم هذه الرؤى تجاوريّا مع الرّؤى التنقيحية المتنوعة التي استثارتها فيما بعد»[1].

تهدف هذه المقاربة إذًا، إلى الإفادة من جماليات النصوص الأدبية، واستغلالها من أجل النفاذ إلى عمقها ومحاولة تحصيل فهم أعمق للدلالات الثقافية والاجتماعية الثاوية خلف تلك الجماليات، وهي بهذا تبتعد عن الاتجاهات التي تُقصي الجانب الجمالي في الأدب وتجعله لصيقا بالنقد الأدبي، فلا مناص من المرور بجمالية النص الأدبي إذا نحن أردنا إنارة النص واستنطاقه والكشف عن مضمراته؛ إنه يُخفي حقيقته خلف جمالياته، التي لا يمكن بأي حال من الأحوال القفز عليها.

لقد عمل الكاتب على إنجاز أطروحته البلاغية الثقافية من خلال منطلقات مترابطة، هي في نظرنا تدور حول:

٢-١- إعادة قراءة البلاغة التقليدية:

لا يتجاهل العوادي التراث البلاغي العربي، بل يعيد قراءته من منظور جديد، مستكشفا الجوانب الاجتماعية والثقافية الكامنة فيه، وهو لا ينظر إلى البلاغة بوصفها ذلك العلم المعياري فحسب؛ بل يتعامل معها بوصفها فضاء تتجلى فيه تفاعلات المجتمع وتصوراته؛ وهو في هذا يوضح كيف أن المفاهيم البلاغية التقليدية، مثل التشبيه والاستعارة والكناية، يُمكن أن تُفهَم بشكل أعمق عند ربطها بسياقاتها التواصلية والثقافية؛ فالتحولات المهمة «التي مسّت البلاغة اليوم، من شأنها أن تفتح أمامنا أفقا جديدا لقراءة هذا النمط من الخطابات (الطعام والكلام)؛ وهو أفق يتجاوز القراءة التعليمية الضيقة التي عمّرت ردحا من الزمن، وحصرت اهتمام البلاغة العربية في تسمية الظواهر؛ ويتطلع إلى قراءة ثقافية، يتحاور فيها التعبير مع التفكير والأنساق

(١) الثقافة والإمبريالية: ١٣٥.

مع السياقات، وتفتح فيها أبواب النصوص ونوافذها على مسرح الحياة الاجتماعية والثقافية»[١].

٢-٢- التجديد البلاغي:

سعى الكاتب إلى تجديد الدرس البلاغي من خلال ربطه بمجالات معرفية أخرى وجعله ينفتح عليها، من مثل الدراسات الثقافية والانثروبولوجيا، وكان هذا التلاقح المعرفي مفيدا جدا في فتح آفاق جديدة لفهم النصوص البلاغية، وجعلها أكثر حيوية وراهنية، إنّ عمل الدكتور العوادي في كتابه هذا يقدّم نموذجا تطبيقيا عمليّا لكيفية تجاوز الجمود الذي أصاب في جزء منه الدراسات البلاغية، من خلال إبراز قدرتها على تحليل الظواهر الثقافية المعقدة وكشف مضمراتها.

٢-٣- المنهجية النسقية \ السياقية:

اعتمد الكاتب منهجية لا تنظر إلى الظواهر البلاغية بمعزل عن سياقاتها، بل تحللها ضمن نسق ثقافي متكامل؛ إذ البلاغة ليست مجرد مجموعة من الأدوات اللغوية، بل هي جزء من نظام ثقافي أوسع، تتأثر به وتؤثر فيه، وساعد هذا التوجه المُركّز على السياق في فهم الدلالات العميقة للنصوص، وتحديد رؤيتها الثقافية، وكيف تتشكل المعاني في ظل تفاعلات ثقافية مخصوصة.

٢-٤- التصورات والرموز: محاولة في الفهم والتأويل:

لقد سعى الدكتور سعيد العوادي إلى استكشاف العلاقة المفترضة بين الطعام والكلام عن طريق المقاربة التي أسّس لها تطبيقيا في كتابه هذا، وحاول أن يُبرز ملامح هذه العلاقة عن طريق آليات متعددة كالاستعارة والسخرية والرمز والأسطورة وغيرها، وحسبنا أن نركز النظر هنا في أمرين أساسين:

(١) الطعام والكلام: ١٥.

٢-٥- توظيف الاستعارة التصورية:

نجح الكتاب إلى حدّ كبير في إظهار قدرة التراث العربي على تناول الموضوعات المختلفة التي همّت الإنسان العربيّ، وبخاصة ما ارتبط منها بالطعام والكلام؛ وذلك عن طريق توظيف الاستعارة التصورية، بالطريقة التي غدَت عليها الاستعارة اليوم بوصفها «فهمَ نوع من التجربة من خلال نوع آخر»[١]، دون إغفال ارتباط فهمها وتفسيرها بضرورة استحضار المكوّن السياقي ودوره في إنتاج الاستعارات[٢]، فالطعام يمكن أن يُتصوّر بوصفه «ثوابا»، وبوصفه «عقابا»؛ والكلام يمكن أن يكون «لذيذا» أو مُرّا»؛ والإنسان يمكن أن «يهضم» الأفكار، و»يطبخ» المعنى.

وقد يمتد الأمر إلى أبعد من ذلك، كما عبّر عنه الدكتور محمد زهير في تقديمه لكتاب الطعام والكلام، فالطعام «في الحياة يُحتاج إلى أكثر منه، وهذا الأكثر يجد في الكلام مجالا من أخصب مجالاته المتفاعلة مع الطعام تفاعلا لا يقتصر على مجرد التسميات التعيينية لأنواعه وأصنافه، بل يمضي أبعد حين يصير الطعام وما يحفّ به موضوعا لإنتاج مأدبة كلامية دالّة على خصوبة التخييل والتجريد والابتداع عند الإنسان، ومعبرة عن أحوال وتصرفات وأنظار تتعلق بالطعام أو بغيره، لكن بمستعارات من محافله»[٣].

٢-٦- استخلاص الدلالات الرمزية:

يتجاوز الطعام كونه مجرد حالة بيولوجية، ليصبح حاملا لدلالات رمزية عميقة في الخطاب العربي، إنه متعلق بالكرم، وبالضيافة، وبالوفرة، وبالبخل والشح والقلّة، بل ويرتبط ارتباطا وثيقا بالسلطة والمكانة الاجتماعية، إنه رمز للممارسات السياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية والاجتماعية، ومُحرّك لها وباعث على اضطرابها أو ثباتها، إنّه جزء من الخطابات التي «تنتج السلطة وتبثّها، هي تقوّيها، ولكنها أيضا

(١) الاستعارات التي نحيا بها: ٢١.

(٢) يُنظر: كتاب «مدخل في النحو العرفاني» (رولاند لانقاكر)، وبخاصة مفهومه المرتبط بالسياق «فضاء الخطاب الجاري»، وكتاب «نظرية الاستعارة التصورية الموسعة» (زُلتان كوفِتتش) في الفصل الخامس المخصص للسياق.

(٣) الطعام والكلام: ١١.

تقوّضها، وتكشفها؛ إنها تجعلها هشّة، وتجعل من الممكن إحباطها»[1].

بالعودة إلى الكتاب، يمكننا القول إنه في مجمله رحلة في الدلالات الرمزية للطعام، وبشكل عامّ يمكن حصرها في أربعة أشكال:

-الرمزية الوجودية\الاجتماعية: عالم الغيب وعالم الشهادة:

حيث يحمل الطعام دلالة رمزية مرتبطة بالدنيا وبالآخرة، فتحدث الكاتب عن ضيافة الدنيا حين يصبح الطعام رمزا معبرا عن دورة الحياة الإنسانية، بدءا بالولادة والاحتفال وصولا إلى الموت والحداد، في مقابل ضيافة الآخرة، التي يغدو معها الطعام رمزا للنعيم أو الحرمان والعذاب الأبديّيْن.

-الرمزية البلاغية: الطعام في معمل البلاغة الثقافية، من المادة إلى الصورة:

استقى الكاتب رمزية الطعام بلاغيا من خلال توظيف آليات البلاغة المعروفة، فتحدث عن التصوير الطعامي، مقسما إياه إلى التصوير التشبيهي والاستعاري والكنائي، كما لم يغفل جعل الطعام رمزا للثواب والعقاب، وتحدث صراحة عمّا سمّاه «الترميز الثقافي لأصول الطعام»، وهو تناول ثقافي بديع لبعض الأطعمة ورمزيتها في الثقافة والتراث العربيّيْن، وركز في تحليله هذا على أبرز الأطعمة التي ضمنت للإنسان البقاء، من مثل «الخبز» و«الملح» و«الماء»، بالإضافة إلى «النار».

-الرمزية الأسطورية\الدرامية:

وفيها قدم الكاتب قراءته الثقافية للطعام من زاوية الأسطورة والمَثَل، فنلفيه ينقل لنا، من بين أمور كثيرة، احتفاء التراث العربي بـِ «أسطرة حاتم الطائي» فسيرة حاتم «سيرة كرم أسطوري لا حدود له»[2]، حتى إنه غدَا هو نفسه صفة للكرم البالغ إلى أن قيل «أكرم من حاتم»، إنها رمزية أسطورية ضاربة في عمق المجتمع، حتى إن حاتم إلّم يجد من يأكل معه الطعام طَرحه، «إذ لم يعد الأكل عنده حاجة بيولوجية، بقدر ما

(1) Foucault, 2009, P.315

(٢) الطعام والكلام: ١٥٩.

هو مشاركة مع الآخرين، كما لو أن جسد حاتم لا يكتمل إلا بوجود أجساد الضيوف التي يجب أن تُضاف إليه»[1].

-الرمزية الأخلاقية: الطعام بين العطاء والمنع:

يخترق الطعام الثقافة اختراقَه حياة الإنسان، والكاتب حين تناول علاقة الطعام بكلام الناس وتصرفاتهم وسلوكياتهم كانت غايته إزالة الغطاء عن ذلك الوجه الذي يجعل من الطعام كاشفا لدواخل الناس ونفسياتهم وطبيعة أخلاقهم، ليغدو معه الطعام رمزا أخلاقيا، فحين يكون موهوبا فهو رمز للقوة والكرم والعطاء والمحبة؛ وحين يكون منهوبا فهو رمز للانتهازية والجشع والغدر، وحين يغدو مرهوبا فهو رمز للبخل والشح وتضييع حق النفس وحقوق الآخرين.

٣- الطعام والذاكرة: الممارسة والخطاب:

يبرز الطعام في الكتاب بوصفه حاملا للذاكرة الثقافية في التراث العربيّ، متجاوزا ـكما سبق الذكرـ وظيفته البيولوجية ليصبح مستودعا للقيم والعادات والتحولات المجتمعية، وحضور الذاكرة لا ينتظر منا أن نبذل الجهد من أجل تمكينها منه، بل إنها تنهل من المجتمع، وتتجلى من خلاله، إنها لا تعرف طريقا للحضور إلا عن طريقه، فالثقافة لا تضمن لنفسها البقاء والاستمرارية وتجنب الضمور والتشظي دون آلية الذاكرة.

يشير الكاتب إلى دور الطعام في تفعيل الذاكرة الثقافية وحفظها، ويسوق لذلك أمثلة عديدة، يجدها القارئ المتأني مبثوثة في تضاعيف الكتاب، إنّ إفراد التراث العربيّ مساحة كبيرة للحديث عن الكرم والعطاء والمأدبة والزهد والضيافة والبخل والشح والشّره والتلاعب بالقول والتطفيل وغيرها، ستكون كلها إشارات دالة على رغبة الذهن العربي في نقل المجتمعي إلى الثقافي والحرص على خلوده، واستحضار الماضي ضمن الحاضر، سواء كان الأمر مرغوبا أم مذموما، وسواء كان عادات وتقاليد أم أمورا حادثة عارضة.

(١) الطعام والكلام: ١٦١.

ليس المقام هنا مقام ذكر لكل ما يربط الطعام بالذاكرة، بل هو إلماعة لما حواه الكتاب من إشارات في هذا السياق، ونقتصر في ذلك على ذكر ما سمّاه الكاتب «كُتب الطّبِيخ» وذَيّل العنوان بعنوان فرعيّ دالّ: «ذاكرة الوصفات»[١].

ليست كتب الطبيخ مجرد وصفات طعام، بل هي في نظر الدكتور العوادي وثيقة اجتماعية وتاريخية غنية، ذلك أنها لا تُسجّل فنون الطهي فحسب، بل تكشف عن أنماط الحياة، والعادات الغذائية، والتفضيلات الطبقية، بل وحتى التفاعلات الثقافية بين الشعوب، إنها تقدم لمحة عن الحياة اليومية، والاقتصاد، والذوق العام في فترات تاريخية مختلفة، مما يجعلها مصدرا قيّما لدراسة التاريخ الاجتماعي والثقافي؛ «فَكِّر في الطبخ والغذاء وطرق تشابكهما مع الذاكرة، فالوصفة تتوارثها الأجيال، وربّما ترتبط مع جدّة بشكل لا يُمحى»[٢].

يُدخل الكاتب كُتب الطبيخ ضمن نمط خِطابي نثريّ هو «خطاب الطبخ»، ويتأسف لإهمال الدراسات العربيّة النّظر في كتب هذا الخطاب، ويُرجع سبب ذلك إلى نظرتها المعيارية الجامدة للطبيعة البلاغية لنصوص هذا الخطاب، وهو ما نلحظ عكسه تماما في الدراسات الغربية، التي «عمّقت النظر في كتب الطبخ الحديثة على وجه الخصوص في مسعاها نحو كشف نوعيات النصوص وخصائصها»[٣].

هذا الإهمال في تحقيق كتب الطبيخ وإخراجها للقراءة ودراستها جعل من الصعب تتبعها، ولذلك يقترح الكاتب مسارَيْن للاقتراب منها:

- **السياق:**

ويقصد به الظروف العامة التي حفزت الكتابة في هذا المجال، أولها الوعي العربيّ بأهمية الطعام والشراب في الوجود الإنساني، مثلما عبّر عنه ابن الكريم في مقدمة كتابه «كتاب الطبيخ»[٤]، وأقرّه عليه ابن رزين التجيبي الأندلسي في مقدمة كتابه «فضالة

(١) الطعام والكلام: ٢٢٥-٢٢٩.
(٢) الدراسات الثقافية: مقدمة نقدية: ٩٢.
(٣) الطعام والكلام: ٢٢٥.
(٤) كتاب الطبيخ: ٥.

الخوان»[1]، وثانيها متعلق بالانخراط في سلسلة التأليف الطّبخيّ، الذي بدأ مع إبراهيم بن المهدي (٢٢٤ هـ) ابن الخليفة المهدي وأخ الخليفة هارون الرشيد في كتابه «كتاب الطبيخ»؛ ولا شك «أنّ انطلاق الكتابة الطبخية من القصر وقف سدّا منيعا أمام كل من يروم تحقير هذا اللون من الخطاب، الذي تحصّن بالسلطة ضد مُستهجني خطابات المتعة»[2].

-النظام:

ينبني خطاب الطبيخ العربي القديم على ما يُعرف اليوم بالوصفات، التي كان يطلق عليها الصفة أو الصنعة أو اللون أو العمل، واستخلص الدكتور العوادي طريقة انبناء هذه الوصفات على مراحل ثلاث تتضمن كلّ منها أفعالا متتابعة: البداية (يُؤخذ) والوسط (يُطرح، يُغلى، يُرش، يُحرّك، يُجعل) والنهاية (يُقدّم، يُرفع).

انتبه العوادي، إضافة إلى اعتناء كتب الطبيخ بإغناء الذاكرة الثقافية، إلى لغة هذه الكتب، وتعبيرها عن الوعي العربيّ الحاضر أثناء تأليف هذه الكتب وتحريرها، وفي هذا يقول إن «ما كتبه هؤلاء هو ابتداع لطريقة جديدة في الأداء اللغوي العربي، باعتماد مستوى من الأسلوب المتقشف، والخالي من المحسنات البديعية والصور البيانية.. إنه أسلوب نحيف خال من الشحوم، وإن كان يبني هذه الشحوم في الأجساد التي تستعمل وصفاته الدسمة»[3].

٤- نحو استشراف آفاق بحثية جديدة

على الرغم من أن كتاب «الطعام والكلام» يركز بشكل أساس على التراث العربيّ، إلا أنّ الدكتور سعيد العوادي يحرص على إبراز امتدادات هذه العلاقة بين الطعام والكلام نحو خطابات معاصرة، مما أضفى على دراسته بعدا راهنيا ومستقبليا:

يوضح الكتاب كيف أنّ المفاهيم والدلالات التي تناولها في سياق التراث العربيّ

(١) فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان: ٢٩.
(٢) الطعام والكلام: ٢٢٧.
(٣) الطعام والكلام: ٢٢٩.

ما تزال حاضرة، بل وامتدت، وإن بأشكال مختلفة؛ فالعلاقة بين الطعام والكلام لم تنقطع، بل تطورت وتكيفت مع السياقات الجديدة، ويمكن ملاحظة ذلك في الخطاب الإعلامي والإعلاني، وحتى في لغة الحياة اليومية، حيث يُوظف الطعام بوصفه حاملا لرموز وقيم ودلالات مختلفة، ومُخزّنا لأنساق ورؤى متعددة.

يستثمر الكاتب ملاحظته النبيهة التي مرّت معنا، في كون الدراسات العربية مثلا لم تُعن العناية الكافية بكتب الطبيخ، ليربط خطاب الطبيخ بخطاب الإعلام والقانون، فيتساءل قائلا: «فهل يكون الطباخ العربيّ سبّاقا لاعتماد لغة واصفة وظيفية تقنية، تتباهى اليوم لغة الإعلام والقانون بإشاعتها في السوق اللغوية العربية؟!»[١]، إنه تساؤل يربط الماضي بالحاضر، ويجعل النسق اللغوي ممتدا زمنيا ومتوسعا خطابيا؛ إنه تساؤل يتجاوز حدود لغة الخطاب إلى الخطاب نفسه، ويفتح الباب مُشرعا لدراسات جادة أخرى، يمكنها أن تعالج مسألة العلاقة الثقافية بين خطابات يظهر للوهلة الأولى تباعدها، لكنها تتشارك، إضافة إلى طبيعة اللغة التي تعتمدها، أمورا كثيرة أخرى تستحق البحث والتدقيق.

يفتح كتاب «الطعام والكلام» آفاقا للتفكير في كيفية استمرار هذه العلاقة في المستقبل، وكيف يمكن أن تتشكل دلالات جديدة للطعام والكلام في ظل التغيرات الثقافية والاجتماعية والتكنلوجية، إنه يدعو إلى إعادة النظر في طريقة فهمنا للثقافة واللغة، وإلى البحث عن الروابط الخفية بين الظواهر التي تبدو عادة متباعدة.

لم تكن قراءتنا للكتاب المعين الوحيد على إدراك انفتاح هذه الدراسة على ما بعدها، بل إنّ الكاتب نفسه يُشجّع على هذا الأمر ويدعو إليه، وهو ما ذيّل به خاتمة الكتاب بقوله: «نأمل أن يفتح الكتاب شهيّة الباحثين لنتعاون جميعا للمضي في هذا الطريق اللاحب، بالكشف عن تشكلات الطعام في خطابات أدبية قديمة وجديدة مثل: خطاب الرحلة وخطاب التصوف وخطاب الرواية، لنَخرجَ ـوالأصحّ لنعودـ إلى بلاغة أكثر رحابة وأغنى فائدة، هي بلاغة الحياة»[٢].

لقد أثمرت دعوته هذه أطروحة دكتوراه ناقشها الطالب الباحث يحيى الشراع ـتحت إشرافه شخصياـ وُسمت بعنوان: «التشكيل الخطابي لأدب الوباء – مقاربة

(١) الطعام والكلام: ٢٢٩.
(٢) الطعام والكلام: ٢٨٠.

بلاغية ثقافية»[1]، وهي وإن ابتعدت عن خطاب الطعام والكلام نحو خطاب الوباء، إلا أنها اعتمدت المقاربة نفسها التي ابتدأها الدكتور سعيد العوادي في كتابه هذا، ومشت على منواله، وهو ما ينبئ عن بداية واعدة لمشروع البلاغة الثقافية، التي انطلقت مع الطعام والكلام، والظاهر أنها ستستمر نظرا لقدرتها على تحليل الخطابات والنفاذ إلى عمقها، بنَفَس بلاغي منفتح من جهة، ورؤية ثقافية موسعة من جهة أخرى.

ركّز الكتاب بشكل شبه كامل على نصوص التراث العربيّ، وعبّر عن ذلك بشكل مباشر في العنوان، وبصورة أدق في المقدمة، وأعاد التذكير به في الخاتمة، وهو أمر مفهوم ومقبول بالنظر إلى طبيعة البحث واختيار المؤلف المنهجي لحصر المادة الأدبية ومنع تشتيتها.

لقد كان الدكتور العوادي واعيا باختياراته هاته، ولذلك سيقدّم للقارئ كتابا آخر، عالج فيه تعالقات الطعام والكلام في الأدب الحديث، سمّاه «مطبخ الرواية: من المشهدية إلى التضفير»، حيث جعل متن الدراسة «الرواية العربية الحديثة»، ممثلة في تسع روايات متوزعة جغرافيا في العالم العربي، وعمل من خلال تحليلها على إعادة الاعتبار مرة أخرى لتيمة الطعام بوصفها تيمة تستحق البحث والاهتمام، ضمن سياق مختلف، هو سياق السرد الروائي؛ بعيدا عن التحجر الذي كان يرفض مثل هذه الموضوعات، ويعتبرها لا ترقى إلى مستوى التأثير الذي يجبرها على جعلها في صلب اهتماماتها، وهو ما أكدته العديد من التوجهات الحديثة، الغربية منها والعربية، التي أولت المهمش والهامش التقدير الذي يستحقه، وأسهمت في الكشف عن مدى تأثيره في تأثيث حياة الإنسان وفضائه الثقافي.

٥- على سبيل الختم:

لقد حظي كتاب «الطعام والكلام: حفريات بلاغية ثقافية في التراث العربي» ـ

(١) هي أطروحة دكتوراه مسجلة في كلية اللغة العربية التابعة لجامعة القاضي عياض بمراكش- المغرب، ناقشها الطالب الباحث «يحيى الشراع» تحت إشراف الدكتور «سعيد العوادي» سنة ٢٠٢٥، وحظيت بقبول لجنة المناقشة التي منحته ميزة مشرف جدا، مع تنويه خاص وتوصية بالطبع؛ وتكونت هذه اللجنة ـإضافة إلى المشرفـ من الدكتور عبد الرزاق المصباحي، والدكتور عادل عبد اللطيف، والدكتور عبد الفتاح شهيد، والدكتور عبد الرحمان إكيدر.

الصادر سنة ٢٠٢٣ في طبعة أنيقة عن دار إفريقيا الشرق ـ بتقدير رفيع في الأوساط الأكاديمية، تمثّل في فوزه بجائزة الشيخ زايد للكتاب، فرع الفنون والدراسات النقدية لسنة ٢٠٢٥، وكان هذا السّفر القصير في مضامين الكتاب ومنهجيته المبتكرة ومقاربته الفريدة، كشفا بسيطا عن ملامح الجِدّة فيه، بوصفه يمثل اليوم علامة فارقة في الدراسات البلاغية والثقافية العربية؛ حيث عمل الدكتور العوادي فيه على الكشف عن الروابط العميقة والكامنة بين مفهومين أساسين في الوجود الإنساني بشكل عام والثقافة العربية بشكل خاص، وهما: الطعام والكلام.

يتمتع كتاب «الطعام والكلام» بنقاط قوة جلية جعلته عملا متميزا يستحق القراءة والاحتفاء، نُجملها في أربع نقاط:

- **فرادة الموضوع:**

يتمثّل الموضوع الأساس للدراسات الثقافية في «دراسة كل أنماط الإنتاج الثقافي في علاقتها بالممارسات التي تحدد اليومي (أيديولوجيا، مؤسسات، لغات، بنى السلطة...)»[1]، وهو ما جعل من تناول العلاقة بين الطعام والكلام في التراث العربي من منظور بلاغي وثقافي موضوعا طبيعيا للبحث، لكنه فريد من زاوية كونه غير مطروق بشكل كافٍ في الدراسات العربية، هذه الفرادة منحت الكتاب أصالة وتميزا، وجعلته مرجعا مهما للباحثين في مجالات البلاغة والدراسات الثقافية والتراث العربي.

- **المنهجية المبتكرة:**

قدم الدكتور العوادي في كتابه هذا منهجية تحليلية مبتكرة، جمعت بين البلاغة واللسانيات والسيميائيات والأنثروبولوجيا والتاريخ والدراسات الثقافية؛ ما مكنّه من الغوص في أعماق النصوص التراثية وربط دلالاتها مع بعضها البعض، وتقديم قراءة بلاغية ثقافية رصينة.

(١) السرد موضوعا للدراسات الثقافية: ١٠٧-١٣٢.

- **الأسلوب الإبداعي:**

تميز الكتاب بأسلوب كتابة جذاب وممتع، جمع بين الأصالة الأكاديمية واللغة الأدبية، ووظف بشكل بديع استعارات الطهي والطبخ في تقسيم الكتاب وعرض محاوره، ما أضفى على الكتاب طابعا إبداعيا، وجعل القراءة تجربة طعامية ثرية ومحفزة، كما أن قدرة الكاتب على ربط المفاهيم المعقدة بأمثلة واضحة من التراث زادت من جاذبية القراءة وإبداعيتها.

- **القيمة الأكاديمية:**

قدّم الكتاب قيمة أكاديمية عالية من خلال تحليلاته العميقة، وسعة اطلاع صاحبه على المصادر التراثية، وقدرته على بناء أطروحة متماسكة وحجج قوية، ما ينبئ عن أنه أعطى البحث عن المادة _فضلا عن القراءة والتحليل والربط والتفسير_ الوقت الكافي واستفرغ فيه جهده، إذ إنّ المطلع على الكتاب سيظهر له بجلاء كونه ليس مجرد عرض للمعلومات وتكديسها، بقدر ما هو عمل بحثي جادّ، يُفترض فيه أنّه سيفتح _للباحثين والمهتمّين_ آفاقا جديدة للبحث والدراسة في مجالات متعددة، ويسهم في تجديد الدرس البلاغي والثقافي.

لقد منح هذا الكتاب لصاحبه سمة الباحث الفذّ الذي كان يبحث عنه عبد الفتاح كيليطو منذ أربعين سنة، وأشار له في كتابه «المقامات: السرد والأنساق الثقافية»، حيث قال _وقوله هذا بالمناسبة أورده الدكتور سعيد العوادي نفسه في مستهل كتابه، وهو أول ما يصادفه القارئ بعد الفهرس_: «إن أدب المأدبة، رغم كونه يحتل حيّزا هامّا في الثقافة العربية، لا يزال ينتظر بصبر الباحث الذي سيقوم بدراسته؛ سوسيولوجيا وشعرية المأدبة ما زالتا في حاجة إلى بلورة»[1]، وحسبُنا نحن أن نقول، لمن ما يزال يتمتع برفاهية عدم قراءة هذا الكتاب بعدُ، ما قاله أبو حيان التوحيدي: «أُدْخُلْ وكُلْ»[2].

(١) المقامات: السرد والأنساق الثقافية: ١٢١.
(٢) الإمتاع والمؤانسة: ٣\٦.

١. الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف و مارك جونسون، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، المغرب، ط٢، ٢٠٠٩م.

٢. إعادة اكتشاف التراث العربي من خلال كتاب «الطعام والكلام: حفريات ثقافية»، جريدة الجزيرة الثقافية، تاريخ الاطلاع: ١٠ غشت ٢٠٢٥، متاح على الرابط: htm.cm٢/٢٠٢٥٠١٣١/٢٠٢٥/https://www.al-jazirah.com

٣. الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين وأمين الزين، دار المكتبة العصرية، بيروت.

٤. البخلاء، أبو بكر البغدادي، عناية بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٠.

٥. الثقافة والإمبريالية، إدوارد سعيد، نقله إلى العربية وقدّم له كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٩٨.

٦. الدراسات الثقافية: مقدمة نقدية، سايمون ديورنغ، ترجمة: ممدوح يوسف عمران، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠١٥.

٧. ديوان ابن الرومي، أبو الحسن علي ابن الرومي، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط٢، ٢٠٠٢.

٨. السرد موضوعا للدراسات الثقافية، إدريس الخضراوي، مجلة تبيّن، العدد٧، المجلد٢، شتاء ٢٠١٤.

٩. الطعام والكلام حفريات بلاغية ثقافية في التراث العربي، سعيد العوادي، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٢٣.

١٠. العقد الفريد، أحمد بن محمد ابن عبد ربه، تحقيق: محمد مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٣.

١١. الفتنة والآخر: أنساق الغيرية في السرد العربي، شرف الدين ماجدولين، دار

الأمان، الرباط المغرب، ط١، ٢٠١٢.

١٢. فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، ابن رزين التجيبي، تحقيق: محمد بنشقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٤.

١٣. مدخل في النحو العرفاني، رولاند لانقاكر، ترجمة الأزهر الزناد، مراجعة الحبيب عبد السلام، منشورات دار سيناترا، معهد تونس للترجمة، تونس، ط١، ٢٠١٨.

١٤. مطبخ الرواية من المشهدية إلى التضفير، سعيد العوادي، أفريقيا الشرق، المغرب، ط١، ٢٠٢٤.

١٥. المقامات: السرد والأنساق الثقافية، عبد الفتاح كيليطو، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط٢، ٢٠٠١.

١٦. نظرية الاستعارة التصورية الموسعة، زُلتان كوفتتش، ترجمه عن الإنجليزية وقدّم له: عبد المجيد جحفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط١، ٢٠٢٥.

١٧. النظرية الثقافية والثقافة الشعبية، جون ستوري، ترجمة: صالح خليل أبو أصبع وفاروق منصور، مراجعة عمر الأيوبي، مشروع كلمة، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات، ط١، ٢٠١٤.

18. Foucault, M. (2009). Method, in Cultural Theot and Popular Culture: A reader, 4th edn, edited by John Storey, Harlow: Pearson Education.

References

1. al-Bukhalā’. Abū Bakr al-Baghdādī. ‘Ināyat Bassām ‘Abd al-Wahhāb al-Jābī. Bayrūt Lubnān: Dār Ibn Ḥazm, Ṭ 1, 2000.

2. al-Dirāsāt al-thaqāfīyah: muqaddimah naqdīyah. Sāymūn Diyūringh. Tarjamah: Mamdūḥ Yūsuf ‘Imrān. al-Kuwayt: ‘Ālam al-Ma‘rifah, al-Majlis al-Waṭanī lil-Thaqāfah wa-al-Funūn wa-al-Ādāb, 2015.

3. al-Fitnah wa-al-ākhar: ansāq al-ghayrīyah fī al-sard al-‘Arabī. Sharaf al-Dīn Mājdūlīn. al-Ribāṭ al-Maghrib: Dār al-Amān, Ṭ 1, 2012.

4. al-Imtā‘ wa-al-mu’ānasah. Abū Ḥayyān al-Tawḥīdī. Taḥqīq: Aḥmad Amīn wa-Amīn al-Zayn. Bayrūt: Dār al-Maktabah al-‘Aṣrīyah.

5. al-‘Iqd al-farīd. Aḥmad ibn Muḥammad Ibn ‘Abd Rabbih. Taḥqīq: Muḥammad Mufīd Qamīḥah. Bayrūt Lubnān: Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, Ṭ 1, 1983.

6. al-Isti‘ārāt allatī naḥyā bihā. Jūrj Lāykūf wa Mārk Jūnsūn. Tarjamah: ‘Abd al-Majīd Jaḥfah. al-Maghrib: Dār Tūbqāl lil-Nashr, Ṭ 2, 2009 M.

7. al-Maqāmāt: al-sard wa-al-ansāq al-thaqāfīyah. ‘Abd al-Fattāḥ Kīlīṭū. Tarjamah: ‘Abd al-Kabīr al-Sharqāwī. al-Maghrib: Dār Tūbqāl lil-Nashr, Ṭ 2, 2001.

8. al-Naẓarīyah al-thaqāfīyah wa-al-thaqāfah al-sha‘bīyah. Jūn Stūrī. Tarjamah: Ṣāliḥ Khalīl Abū Uṣba‘ wa-Fārūq Manṣūr. Murāja‘at ‘Umar al-Ayyūbī. Imārāt: Mashrū‘ Kalimah, Hay’at Abū Ẓabī lil-Siyāḥah wa-al-Thaqāfah, Ṭ 1, 2014.

9. al-Sard mawḍū‘an lil-dirāsāt al-thaqāfīyah. Idrīs al-Khaḍrāwī. Majallat Tabayyun. al-‘Adad 7, al-Mujallad 2, Shitā’ 2014.

10. al-Ṭa‘ām wa-al-kalām ḥafarīyāt balāghīyah thaqāfīyah fī al-

turāth al-ʻArabī. Saʻīd al-ʻAwādī. al-Dār al-Bayḍā': Dār Ifrīqiyā al-Sharq, Ṭ 1, 2023.

11. al-Thaqāfah wa-al-imbiryālīyah. Idwārd Saʻīd. Naqalahu ilá al-ʻArabīyah wa-qaddama lahu Kamāl Abū Dīb. Bayrūt: Dār al-Ādāb, Ṭ 2, 1998.

12. Dīwān Ibn al-Rūmī. Abū al-Ḥasan ʻAlī Ibn al-Rūmī. Sharḥ Aḥmad Ḥasan Basaj. Bayrūt Lubnān: Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, Ṭ 2, 2002.

13. Faḍālat al-khiwān fī ṭayyibāt al-ṭaʻām wa-al-alwān. Ibn Razīn al-Tujībī. Taḥqīq: Muḥammad Binshaqrūn. Bayrūt: Dār al-Gharb al-Islāmī, Ṭ 1, 1984.

14. Foucault, M. (2009). Method, in Cultural Theot and Popular Culture: A reader, 4th edn, edited by John Storey, Harlow: Pearson Education.

15. Iʻādat iktishāf al-turāth al-ʻArabī min khilāl kitāb «al-Ṭaʻām wa-al-kalām: ḥafarīyāt thaqāfīyah». Jarīdat al-Jazīrah al-Thaqāfīyah. Tārīkh al-iṭṭilāʻ: 10 Ghusht 2025. Mutāḥ ʻalá al-rābiṭ: https://www.al-jazirah.com/2025/20250131/cm2.htm

16. Madkhal fī al-naḥw al-ʻirfānī. Rūlānd Lānqākir. Tarjamat al-Azhar al-Zanād. Murājaʻat al-Ḥabīb ʻAbd al-Salām. Tūnis: Manshūrāt Dār Sīnātrā, Maʻhad Tūnis lil-Tarjamah, Ṭ 1, 2018.

17. Maṭbakh al-riwāyah min al-mashhadīyah ilá al-taḍfīr. Saʻīd al-ʻAwādī. Ifrīqiyā al-Sharq, al-Maghrib, Ṭ 1, 2024.

18. Naẓarīyat al-istiʻārah al-taṣawwurīyah al-muwassaʻah. Zultān Kūftitsh. Tarjamahu ʻan al-Injilīzīyah wa-qaddama lahu: ʻAbd al-Majīd Jaḥfah. Lubnān: Dār al-Kitāb al-Jadīd al-Muttaḥidah, Ṭ 1, 2025.